

## الدستور البريطاني – كارل ماركس {٥٣}

كارل ماركس

ماركس، انجلز، الاعمال الكاملة، المجلد ١٤ (ص ص ٥٣ – ٥٤) دار التقدم  
موسكو، ١٩٨٠. الطبعة الانجليزية

ترجمة: سعيد العليمي

لندن، ٢ مارس.

بينما اخفق الدستور البريطاني في كل مسألة وضعت فيها الحرب موضع اختبار من كل الجوانب، فان حكومة الائتلاف داخل الوطن، الحكومة الاكثر دستورية من بين الحكومات في تاريخ انجلترا قد تحطمت. مات اربعون الف جندي بريطاني على شواطئ البحر الاسود – ضحايا الدستور البريطاني! ضباط، هيئة اركان، قوميسارات، الادارة الطبية، خدمات النقل، الملكية، الخيالة {أ}، مكتب المهمات الحربية، الجيش والبحرية كلها قد انكسرت حتى فقد العالم الثقة فيهم، مع ذلك فقد رضى الجميع بمعرفة انهم ببساطة قد أدوا واجبهم في نظر الدستور البريطاني! لقد تكلمت جريدة التايمز بشكل اكثر صدقا مما نظن حينما تعجبت وهى تشير لهذا الافلاس العام: "انه الدستور البريطاني الذي يخضع للمحاكمة" {ب}. لقد حوكم ووجد مذنباً.

ولكن ما هو الدستور البريطاني؟ هل ينطوي بصفة اساسية على نظام تمثيلي وحدودا للسلطة التنفيذية؟ ان هذه الملامح لا تميزه عن دستور الولايات المتحدة لشمال امريكا ولا عن دساتير شركات المحاصة البريطانية التي لا حصر لها التي تفهم "اعمالها". ان الدستور البريطاني بالفعل ليس الا تسوية قديمة، عتيقة من طراز

عفى عليه الزمن، بين البورجوازية، التي لا تحكم رسمياً، ولكن في الواقع موجودة في كل المجالات الحاسمة للمجتمع المدني، وأرستقراطية الارض، التي تحكم رسمياً. اصلاً، بعد الثورة "المجيدة" لعام ١٦٨٨ دخل قسم واحد من البورجوازية فقط في التسوية وهو الأرستقراطية المالية {٥٤}، وأدخلت وثيقة الاصلاح لعام ١٨٣١ قسماً آخر، اي الميلوقراطية {ج} كما يسميها الانجليز أي اصحاب المقامات العليا من البورجوازية الصناعية {٥٥}. و تاريخ التشريع منذ عام ١٨٣١ هو تاريخ التنازلات التي قدمت للبورجوازية الصناعية بدءاً من قانون الفقراء الجديد حتى الغاء قوانين القمح {٥٦} ومن الغاء قوانين القمح الى ضريبة التركات على الملكية العقارية.

حتى اذا كان الاعتراف بالبورجوازية – وهى الشريحة العليا فقط من الطبقات الوسطى – اجمالاً قد تم ايضاً سياسياً بوصفها طبقة حاكمة، فقد كان ذلك بشرط وحيد هو ان كامل نظام الحكومة بكل تفاصيله، حتى القسم التنفيذي للسلطة التشريعية، اي، صنع القوانين فعلياً في كل من مجلسي البرلمان، قد بقى بأمان في يد الأرستقراطية العقارية. {حوالي} ١٨٣٠ فضلت البورجوازية تجديد التسوية مع الأرستقراطية على التسوية مع جمهور الشعب الانجليزي. الآن الارستقراطية التي تحكم مهيمنة، وفق مبادئ معينة وضعتها البورجوازية، في الوزارة، في البرلمان، في الادارة، في الجيش والبحرية – هذا القسم من الامة البريطانية، وهو القسم الاهم نسبياً قد اكره الآن للتو على ان يوقع شهادة وفاته وان يصرح تحت اعين العالم باجمعه انه لم يعد لديه القدرة على حكم بريطانيا. علينا أن نلاحظ فقط تلك المحاولات لاعطاء الجثة صدمة كهربائية! وزارة بعد وزارة تشكل لتتحل فحسب بعد نظام من اسابيع قليلة. هذه الازمة دائمة، والحكومة فقط هي المؤقتة. كل الاعمال السياسية معلقة، وكل يصرح بأن غرضه فقط هو ان يجعل الآلة السياسية شغالة بما يكفى لمنع توقفها التام. وحتى مجلس العموم لا يتعرف على نفسه في الوزارات التي خلقت على صورته.

وفي وسط هذا العجز العام لم يكن يتعين شن الحرب فقط، ولكن كان ينبغي محاربة عدو اشد خطرا من الامبراطور نيقولا الثاني. هذا العدو هو الازمة في التجارة والصناعة والتي تنمو منذ سبتمبر الماضي اكثر عنفا وشمولا كل يوم. وقد اغلقت يدها الحديدية فورا افواه رسل التجارة الحرة المزيّفون الذين بشروا لسنوات بأن الاسواق المغرقة والازمات الاجتماعية قد اختفت الى الابد في المملكة الظلالية للماضي منذ الغاء قوانين القمح. الاسواق المغرقة هناك، ولكن لا يصرخ احد الآن بصوت اعلى حول الافتقار لليقظة الذي منع المصنعين من تحديد الانتاج الا نفس الاقتصاديين الذين كانوا لا يزالون يعلموننا منذ خمسة شهور مضت - بعصمة العقائدية - انه لا يمكن ابدا ان يكون هناك فيض انتاج.

لقد كشف هذا المرض عن نفسه بالفعل بشكل مزمن في وقت الضربة في بريستون {٥٧} بعد ذلك بوقت قصير ادى الاغراق في السوق الامريكية الى انفجار الازمة في الولايات المتحدة الامريكية. ورغم ان الهند والصين عانتا ومعهما كاليفورنيا واستراليا من زيادة المخزون السلعي فقد استمرت تشكل منافذ تصريف لفيض الانتاج. ولان المصنعين الانجليز لم يعد بإمكانهم بيع سلعهم في السوق المحلى الا باسعار منخفضة، فقد لجأوا لارسال سلعهم الى الخارج امانة واقتضاء ثمنها بعد البيع، خاصة الى الهند، والصين، واستراليا وكاليفورنيا. مكن هذا البديل التجارة من ان تتطلق لوهلة باضطرابات اقل مما لو كانت السلع كلها قد طرحت في الاسواق على الفور. ولكن ما ان وصلت تلك الشحنات الى مرافئ الوصول، حتى حددت الاسعار هناك، وبنهاية سبتمبر كان الاحساس بالتأثير قد وصل الى انجلترا.

غيرت الازمة عندئذ طابعها فتحوّلت من مزمنة الى حادة. واول ما أنهار من بيوت تجارية كان طباعي القطن، ومن بينها شركات قديمة مؤسسة في وحول مانتشستر. وبعدئذ جاء دور ملاك السفن وتجار استراليا وكاليفورنيا، وبعدهم البيوت الصينية، واخيرا الهندية. كل اخذ دوره، واغلبهم عانى بشدة، وكان على الكثيرين ان يوقفوا اعمالهم، والخطر لم ينته بالنسبة لأي من فروع التجارة هذه. وعلى

النقيض، فانه ينمو بثبات. وقد ضرب ايضا صناع الحرير، وقد تقلصت صناعتهم الى الحد الذى باتت فيه لا شئ، وتعانى البلدات التي كانت تمارس فيها اعظم العوز. والان سوف ياتي دور غزالي القطن ومصنعيه. لقد خضع الكثير منهم وسوف يشاركونهم الكثيرون بعد مصيرهم. كما رأينا انفا يعمل غزالي الغزل الدقيق وقتنا قصيرا فقط. وسوف يلجأ غزالي الغزل الخشن قريبا لنفس العلاج. وقسما منهم يعمل بضعة ايام في الاسبوع فقط. فلأى مدة بمقدورهم احتمال ذلك؟

بضعة شهور اخرى، وسوف تصل ازمة مناطق المصنع الى نفس عمق ازمة عام ١٨٤٢ هذا ان لم تتجاوزها. ولكن سرعان ما سيشعر عامة بأثرها وسط الطبقات العاملة، حتى ان الحركة السياسية التي كانت غافية بهذا القدر او ذلك بين هذه الطبقات على مدى السنوات الست الماضية، مخلفة وراءها فقط اطرا (كادرا) من اجل تحريض جديد، سوف تنبثق مرة اخرى. ان الصراع بين البروليتاريا الصناعية والبورجوازية سوف يشتعل مرة اخرى في نفس الوقت الذى يصل فيه الصراع بين البورجوازية والارستقراطية ذروته. وعندئذ فان القناع الذى اخفى حتى الآن الملامح الحقيقية لمظهر بريطانيا السياسي عن الاجانب، سوف يسقط. مع ذلك، فان هؤلاء الذين لا يألفون ثروة هذا البلد في مواردها البشرية والمادية سوف يشكون في انها ستبزغ منتصرة متجددة نضرة من هذه الازمة العظيمة المهددة.

\*\*\*\*\*

### هوامش

{أ} ماركس يستعمل المصطلح الانجليزي — الناشر

{ب} ”من بين كل التغيرات السياسية...“، جريدة التايمز، عدد.٢١٩٧٩، ١٦

فبراير، ١٨٥٥ — الناشر

{ج} ماركس يستعمل المصطلح الانجليزي — الناشر

{٥٣} ظهرت هذه الطبعة من المقال للمرة الاولى في ترجمة انجليزية في مجلد كارل ماركس وفريدريك انجلز، مقالات حول بريطانيا، موسكو ١٩٧١ الطبعة الاخرى المعنونة "الازمة فى انجلترا" كتبها ماركس لجريدة نيويورك دايلي تريبيون باللغة الانجليزية. وقد اعيدت في هذا المجلد في شكلها الاصلى.

{٥٤} اشارة الى الاطاحة بملكية ستيوارت، وتنويج ويليام الثالث من اورانج، مع زوجته ماري، ابنة المخلوع ستيوارت الملك جيمس الثاني، وقد تعززت بعدها الملكية الدستورية في بريطانيا على اساس تسوية بين الأرستقراطية العقارية والبورجوازية المالية.

{٥٥} مصطلح "ميللوقراطيا" (ميلل + قراطيا) استعمله لأول مرة توماس كارليل في مؤلفه الماضى والحاضر، نشر في ١٨٤٣. وثيقة الاصلاح لعام ١٨٣١ - انظر ملاحظة رقم ٤٥.

{٥٦} قانون الفقراء لعام ١٨٣٤ (قانون لتعديل ولادارة افضل للقوانين التى تتعلق بالفقراء فى انجلترا وويلز) وقد سمح بشكل واحد فقط من المساعدة للأشخاص القادرين المحتاجين — تسجيلهم فى مشاغل تشبه السجون حيث يقومون باعمال رتيبة مستنفدة للجهد وغير منتجة. وقد اطلق الشعب عليها اسم باستيل الفقراء. لقد استهدف القانون ان يقبل الفقراء شروط العمل القاسية فى الصناعة، وهكذا يزيدون مدد العمل الرخيص. الغاء قوانين القمح - انظر ملاحظة ١٤.

{٥٧} الاشارة الى واحد من اكبر الاضرابات التى قامت بها الطبقة العاملة فى ١٨٥٠. فى اغسطس ١٨٥٣ توقف الغزالون والنساجون عن العمل فى معامل القطن ببريستون وضواحيها طالبين زيادة ١٠% فى اجورهم. وقد سانداهم العمال فى التجارات الاخرى. وفى سبتمبر رد السادة المتحدون بتنظيم اغلاق للمعامل. حوالى ٢٥٠٠٠ من اجمالى ٣٠٠٠٠ عامل توقفوا عن العمل. وبفضل الدعم الذى قدم لهم من المدن الاخرى، فقد استطاعوا الصمود لاكثر من ٣٦ اسبوعا. وفى فبراير ١٨٥٤، توقف اغلاق المعامل ولكن استمر الاضراب. وحتى ينهوه بدأ

السادة المتحدون في استيراد العمال من ايرلندا والمشغل الانجليزية. وفي مارس، اعتقل قادة الاضراب. ولان مواردهم المالية قد نضبت، فقد اجبر العمال على العودة الى المعامل. وانتهى الاضراب في مايو.

{١٤} قوانين القمح، التي صدر اولها باكرا في القرن الخامس عشر، وقد فرضت ضرائب استيراد عالية على المنتجات الزراعية حتى تبقى الاسعار العالية لهذه المنتجات في السوق المحلي. لقد خدمت قوانين القمح مصالح كبار ملاك الارض. وانتهى الصراع بين البورجوازية الصناعية والارستقراطية العقارية حول قوانين القمح بالغاءها في يونيو ١٨٤٦.

{٤٥} يشير هذا الى وثيقة الاصلاح، التي اصدرها مجلس العموم البريطاني في ١٨٣١ واخيرا صادق عليها مجلس اللوردات في يونيو ١٨٣١. وقد اعطت حق التصويت لملاك ومستأجري المنازل التي يبلغ ايجارها ١٠ جنيهات استرلينية او اكثر. وقد حرمت الطبقة العاملة والبورجوازية الصغيرة - القوى الاساسية في الصراع من اجل الاصلاح - من حق الاقتراع العام.